تطالع احوال الرجال والنساء من المتعبدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك واياك ان تنظر الى اهل
عصرك فانك ان تطع اكثر من في الارض يضلوك واحسن علاج النفس صحبة المجتهدين في العبادة قال
الغزالي كنت اذا اعترتني فترة نظرت الى محمد بن واسع والى اجتهاده وكان مالك بن انس يأتي محمد بن المنكدر
وكان احمد بن حنبل ويحيى بن معين يختلفان الى معروف الكرخي ولم يكن في العلم الظاهر من يتهمهما وكان
الشافعي يجلس بين يدي شيبان الراعي مثل ما يقعد الصبي في المكتب وكان في الارض
ليس فيها مثل هؤلاء فليرجع الى سماع احوالهم ومطالعة اخبارهم وما كانوا فيه من الجهد
الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم واعلم ان هذا الحديث يعم بعمومه
علماء السوء مع انهم ليس لهم فيه حظ وهو قوله عليه الصلاة والسلام فضل العالم
على العابد كفضلي على ادناكم وقد اشترط الله سبحانه للعلم الخشية كما في قوله انما يخشى
الله من عباده العلماء فانما للحصر والاثبات وقد قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر
اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وفي حديث آخر ان اهل النار ليتأذون
من نتن علماء السوء في النار مع ما هم فيه من العذاب قال الشيخ كمال الدين الزملكاني في كتابه
المسمى بتحقيق الاولى باهل الرفيق الاعلى اعلم ان التفضيل تارة يكون بين الصفتين وتارة يكون
بين المتصفين ثم التفضيل بين المتصفين قد يراد به الاكثر منهما ثوابا وقد يراد به الاقرب
الى الله تعالى وفي كلام كثير من العلماء الاشارة الى ان الافضلية تكون لكثرة الثواب وهو ايضا يحتاج
الى تفصيل لانه ان اريد بكثرة الثواب ما يعطيه الله تعالى للعبد في الاخرة من درجات الجنة
ولذاتها ومآكلها ومشاربها ومناكحها وملابسها ونعيمها الجثماني فللمنع في ذلك
مجال وان اريد به ما يعطيه الله تعالى للعبد من مقامات القرب ولذة النظر اليه وسماع كلامه
ولذة المعارف الالهية التي تحصل عند كشف الغطاء وما ناسب ذلك فهو القول الاخر
وهو الاقرب الا ان يقال ان الثوابين متلازمان فمن كان ارفع في احدهما فهو ارفع في الاخر وفي ذلك
نظر للمتأمل ثم الفضيلة تارة تكون باعتبار ذاتي وتارة تكون باعتبار عرضي فالاول باعتبار
الذاتي كتفضيل احد الجنسين على الاخر كما في قوله تعالى الرجال قوامون على النساء بما فضل
الله بعضهم على بعض والثاني باعتبار العرضي فيما يكتسب به كقوله تعالى وفضل الله
المجاهدين على القاعدين وقد يطلق المفضل على كل عطية للانعام المعطي ثم ان الصفة
التي يستحق بها التفضيل قد تكون فضيلة بالنسبة الى ما دونه كما يكون في التفاضل
بين الحيوانات بسبب كثرة الحمل او حسن المشي او في قوة الغدو فانه لا تظهر فضيلة احد
هما على الاخر بالنسبة الى اعتبار حال الاخر وقد تكون فضيلة في نفسها كالعلم فانه شريف
مطلوب لذاته وهو فضيلة بالنسبة الى ما دونه ومن وجه اخر وهو ان الفضيلة قد تكون اذا انفصلت
فقط وقد تزداد بما يتوصل بها اليه كالعلم والعبادة فان العلم في ذاته مطلوب متلذذ به ويفيد
فضيلة وتزداد العبادة ايضا بما يتوصل اليه بها من السعادة الاخروية ويشاركها
في ذلك العلم فيظهر بهذا ان التفضيل بين الامرين قد يكون باعتبار ذاتيهما وقد يكون باعتبار

ما يوصلان اليه وقد اطلق بعضهم ان الفضل في الاعمال الصالحات باعتبار كثرة الثواب
وعندي ان ذلك ليس على اطلاقه فربما كانت ذات هذا الوصف او العمل اشرف واعلى فهو
افضل وقد يخص الله تعالى بعض الاعمال من الوعد بما لا يخص به الاخر فيثيب فيه اما لنفرة
النفس عنه او لمشقته عليها فيرغب فيه لمزيد الثواب او لان غيره مما يقتضي فيه دواعي
النفس والثواب عليه هو الفضل والانصاف ان المفاضلة تارة تكون لكثرة الثواب وتارة
تكون بحسب الوصف المنظور اليهما وتارة تكون بحسب متعلقاتهما وتارة تكون بحسب
ثمرتهما وقد تكون بامر عرضي هذا اذا كان الكلام في وصفين لذات واحدة واما المفاضلة
بين الذاتين فقد يكون لامر يرجع الى الجنس وهو ما لا يدخل تحت الاكتساب كفضل الانسان
على الحمار وقد يكون لامر يرجع الى التشخيص وهذا النوع من التفضيلات عند التحقيق
يؤول الى التفضيل بالاوصاف قال ابن حزم الفضل قسمان لا ثالث لهما فضل اختصاص من الله
تعالى بلا عمل وفضل مجازاة بعمل فاما فضل الاختصاص دون العمل فمشترك فيه جميع
المخلوقين من الحيوانات الناطق وغير الناطق والجمادات والاعراض كفضل الملائكة وفضل
الانبياء وفضل ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاطفال وناقة صالح وذبيح
اسماعيل وفضل مكة والمدينة والمساجد على البقاع والحجر الاسود على الحجارة وشهر
رمضان على الشهور ويوم الجمعة وليلة القدر قال الله تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار
واما فضل المجازات فانه لا يكون الا للحي الناطق وهم الملائكة والانس والجن والانسان المستحق
بها التفضيل في هذا القسم فانما هو المستحق بعمل او ماهية العمل وكميته وهو الغرض
فيه وكيفيته والكم والزمان والمكان والاضافة فاما الماهية ان يكون احدهما يؤدي فرضا
والاخر لا يؤديها ويكثر النوافل والاخر لا يكثرها دون نوافل احدهما افضل من الاخر والكمية
ان يخلص احدهما في العمل ويشوبه الاخر ببعض المقاصد الدنيوية والكيفية ان يؤدي
احدهما جميع حقوق العمل ورتبه والاخر يأتي به ولكن ينقص رتبه والكم ان يستويا
في الفرض ويتبعا او تابع النوافل والزمان كصدر الاسلام او وقت الحاجة والمكان كالصلاة
في المسجد الحرام او مسجد النبي والاضافة كعمل من نبي او عمل مع نبي فهذا ما ذكره في جهات
الفضل ثم قال ونتيجة الفضل بهذه الوجوه شيئان احدهما تعظيم الفاضل
على المفضول فهذا يشترك فيه ما كان فضله بغير عمل بل بالاختصاص وما كان فضله
بعمل والثاني علو الدرجات في الجنة للفاضل على المفضول والا تبطل الفضل وهذا
القسم من التفضيل يختص به الفاضل بفضل عمله دون من حكم بفضله لاختصاص خلاصة
ما ذكره واعلم ان فضيلة العمل على العمل او الوصف على الوصف او الشخص على الشخص
من الامور التوقيفية التي لا يسع الانسان الكلام فيها من قبل نفسه ولا ينبغي لاحد ان يجزم
بتفضيل شخص على شخص ولا نوع على نوع الا بالتوقيف لما له التفضيل او بدليل يستدل

Copyright © King Saud University